

القَصَصُ الدِّينِي
الحلقة الرابعة
العرب في أوربا

العرب في كربلاء

عبد الحميد جودة السحار

١٢

أنوارُ قصرِ قرطبة تتألق ، وأصواتُ المغنياتِ تتردد
 في أرجائه ، والجارياتُ في إقبالٍ وإدبارٍ كالأقمار ،
 وكنوسُ الخمرِ تُفرغُ في البُطون ، وشبابٌ فارغٌ يملأُ
 القاعة ضجيجًا وعجيجا . والحكمُ بن هشامٍ ينهلُ
 من اللذات ، وهو غافلٌ عما يعملُ في صدورِ أحرارِ
 الأندلسيين من ثورةٍ وضيق ، فهم يُشفقون على هذا
 الملكِ الذي أسسوه بدمائهم ، ويخشون أن يتحملَ
 المسلمون نتائجَ عبثِ الحكمِ ولهوهِ . كانوا يطمعون
 في أن يسيرَ بهم إلى الأرضِ الكبيرة ؛ إلى فرنسا
 وإيطاليا وألمانيا ، لِيذكرَ اسمُ الله فيها في الغدوِّ
 والآصال ؛ فإذا به يهجرُ الجهاد ، لِيقبلَ على
 الكواعبِ الناهيات .

آه لو سارَ إلى عَدُوِّهِمْ ، لأَلْفَاهُمْ لِيُوثَا كَوَاسِرَ ،
لَا هَمَّ لَهُمْ إِلَّا أَنْ يُسْتَشْهَدُوا ، أَوْ يَفْتَحَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ
أَرْضًا جَدِيدَةً ، أَمَّا وَقَدْ قَعَدَ عَنِ الْجِهَادِ ، فَحَقَّ عَلَيْهِمْ
جِهَادُهُ لِيُثَوِّبَ إِلَيْهِ رُشْدَهُ ، أَوْ يَنْزِعُوهُ عَنِ مَلِكِهِ .

وَاجْتَمَعَ فِي الرَّبْضِ مِنْ قُرْطُبَةَ أَعْيَانُ الْفُقَهَاءِ :
يَحْيَى بْنُ يَحْيَى اللَّيْثِيُّ صَاحِبُ مَالِكٍ ، وَطَالُوتُ بْنُ
عَبْدِ الْجَبَّارِ الْفَقِيهَ ، وَأَبُو حَفْصٍ عَمْرُ بْنُ شُعَيْبٍ
الْبَلُّوْطِيُّ ، وَأَهْلُ الْعِلْمِ وَالْوَرَعِ ؛ وَرَاحُوا يُدِيرُونَ
قِدَاحَ الرَّأْيِ بَيْنَهُمْ ، فَاسْتَقَرَّ أَمْرُهُمْ عَلَى أَنْ يَثُرُوا
عَلَى الْحَكَمِ ، وَأَنْ يَخْلَعُوهُ وَيُؤَلُّوا عَلَيْهِمْ أَمِيرًا آخَرَ ،
مِنْ قَرَابَتِهِ ، يَحْمِلُ الْمُسْلِمِينَ عَلَى الْجِهَادِ ، وَرَفَعَ أَلْوِيَّةَ
الدِّينِ خَفَاقَةً فِي الْعَالَمِينَ .

وَانْطَلَقُوا فِي الرَّبْضِ ، يُحَرِّضُونَ النَّاسَ عَلَى الْأَمِيرِ
الَّذِي انْهَمَكَ فِي لَذَاتِهِ ، وَيُؤَجِّجُونَ فِي صُدُورِهِمْ

نَارَ الثَّوْرَةِ ، حَتَّى اَنْدَلَعَ لَهَا ؛ وَإِذَا بِآلَافٍ مِنْهُمْ
يُقَرَّرُونَ خَلَعَ الْأَمِيرُ الْمُنْصَرِفُ عَنْ سُنَنِ آبَائِهِ .
وَطَارَتِ الْخَمْرُ مِنْ رَأْسِ الْحَكَمِ ، بَعْدَ أَنْ لَقِيَ
قَوَائِمَ عَرْشِهِ تَكَادُ تَنْدُكُ ، فَعَزَمَ عَلَى أَنْ يُخْرِجَ بِنَفْسِهِ
لِتَأْدِيبِ الشَّاثِرِينَ ، فَأَقْبَلَ عَلَيْهِ ابْنُهُ وَكِبَارُ قَوَّادِهِ
يَتَوَسَّلُونَ إِلَيْهِ :

- لَا تُغَامِرْ بِنَفْسِكَ ، ابْعَثْ إِلَيْهِمُ الْجُيُوشَ .

- لَنْ يُخْرِجَ إِلَيْهِمْ أَحَدٌ غَيْرِي .

وَخَرَجَ الْحَكَمُ إِلَيْهِمْ عَلَى رَأْسِ جَيْشٍ عَظِيمٍ ،
وَدَارَتْ فِي الرَّبْضِ مَعْرَكَةٌ رَهِيْبَةٌ ، سَالَتْ فِيهَا دِمَاءُ
الْمُسْلِمِينَ ، وَامْتَلَأَتِ الشُّوَارِعُ بِجَثَثِ الْقَتْلَى ،
وَانْكَسَرَ أَهْلُ الرَّبْضِ ، فَأَلْقَى الْحَكَمُ الْقَبْضَ عَلَى
ثَلَاثِ مِائَةٍ مِنْهُمْ ، وَصَلَبَهُمْ عَلَى النَّهْرِ ، ثُمَّ خَلَّى بَيْنَ
جُنُودِهِ وَبَيْنَ الْحَيِّ ، وَأَمَرَهُمْ أَلَّا يَتَعَرَّضُوا لِلنِّسَاءِ .

أَعْمَلَ الْجُنُودَ السَّيْفَ فِي الثُّوَارِ ، وَهَدَمُوا دُورَهُمْ
وَمَسَاجِدَهُمْ ، وَسَلَبُوا مَا فِيهَا مِنْ مَالٍ وَمَتَاعٍ . وَنَزَلَ
بِالثُّوَارِ كَرْبٌ شَدِيدٌ حَتَّى إِذَا مَا وَافَى الْيَوْمَ الثَّالِثَ ،
عَفَا الْحَكَمُ عَلَى مَنْ بَقِيَ مِنْهُمْ ، عَلَى أَنْ يُغَادِرُوا
الْبِلَادَ مَعَ أَسْرِهِمْ ، فَرَاخُوا يَتَأَهَّبُونَ لِلرَّحِيلِ .

امتَلأتِ المراكِبُ برجالِ مُطأطِئِ الرُّؤوسِ ، ونساءٍ
تَغسِلُ وجوهَهُنَّ الدُّموعُ ، وأطفالٌ مفزوعينَ
مُرَّوعينَ ، وقد وَقَفَ بينَ هؤلاءِ الذينَ تصدَّعتْ
قلوبُهُم ، أبو حَفْصٍ عمرُ بنُ شُعَيْبِ البَلُوطِيِّ ، رافعَ
الرَّأسِ ، يُصدِرُ أوامِرَهُ إلى البَحَّارَةِ في ثِقَةٍ وَعَزْمٍ ،
كَأَنَّمَا كانَ خارجًا في غَزْوَةٍ ، لا طَرِيدًا لا يَدْرِى إلى
أينَ يَسِيرُ .

وفَصَلَتِ المراكِبُ عن شواطِئِ الأندَلُسِ ، فارْتَفَعَ
النَّحِيبُ والعَوِيلُ ، وَشَرِقَ الرِّجَالُ بدموعِهِم ، حتَّى
أبو حَفْصٍ عمرُ بنُ شُعَيْبٍ تَرَقَّرَتِ العَبْرَاتُ في
مَآقِيهِ ، وَلَكِنْ سرَّعَانَ ما كَبَحَ جِمَاحَ عواطِفِهِ ،
ورَفَعَ رَأْسَهُ ، فما لِلزَّعِيمِ أَنْ يَضْعُفَ أَمَامَ مَنْ وَثِقُوا

به ، وألقوا إليه مقاليد أمورهم ، ليخرجهم من
ظلمات الواقع البغيض .

وشقت المراكبُ عبابَ الماء ، حتى إذا بلغتَ برَّ
العدوة ، هبطَ منها ثمانية آلاف ، حيثُ تقبلهم
إدريسُ بنُ إدريسَ في فاس ، وانطلقتِ المراكبُ
الأخرى تحملُ خمسةَ عشرَ ألفاً ، يقودهم أبو حفصٍ
إلى المجهول . واستمرتِ المراكبُ في انطلاقها ،
لا لشيء إلا الماء والسَّماءُ وتسبيحُ المسبحين ،
والابتهاالُ إلى الله أن يُفرِّجَ عنهم ما هم فيه من
كربٍ شديد ، ولاحتِ الإسكندريةُ ، فخفقتِ
القلوبُ في الصُّدُور ، واشرابتِ الأعناق ، ودبتْ
في المراكبِ الحياة ؛ فقد أصدَرَ أبو حفصٍ أمره
للرجال أن يتأهبوا ، فقد قرأ رأيُه على النزولِ إلى
الإسكندرية .

وَدَخَلَتْ الْمَرَائِبُ الْمَرْفَأَ ، وَطَفِقَ الرَّجَالُ يَقْفِزُونَ
إِلَى الْأَرْضِ كَالْأَسُودِ ، وَقَدْ شَهَرُوا أَسْيَافَهُمْ وَكَشَرُوا
عَنْ أَنْيَابِهِمْ ، فَلَمْ يُعَدِّ أَمَامَهُمْ إِلَّا احْتِلَالُ
الْإِسْكَندَرِيَّةِ ، أَوْ الْمَوْتُ دُونَهَا .

وَسَاحُوا فِي الْأَرْضِ ، وَانْتَشَرُوا فِي أَرْجَاءِ الْمَدِينَةِ ،
وَمَا سَقَطَ اللَّيْلُ ، حَتَّى كَانَ أَبُو حَفْصٍ عَمْرُ
بْنُ شُعَيْبٍ الْبَلُوطِيُّ الْأَنْدَلُسِيُّ ، صَاحِبَ الْكَلِمَةِ
الْمَسْمُوعَةِ فِي الْبَلَدَةِ .

أَفْرَعَ سَقُوطُ الْإِسْكَندَرِيَّةِ فِي أَيْدِي الْأَنْدَلُسِيِّينَ
عَبْدَ اللَّهِ بْنِ طَلْحَةَ ، صَاحِبَ مَصْرَ لِلْمَأْمُونِ
ابْنِ الرَّشِيدِ ، فَجَمَعَ جُمُوعَهُ ، ثُمَّ انْطَلَقَ إِلَى
الْإِسْكَندَرِيَّةِ ، لِيَطْرُدَ مِنْهَا هَؤُلَاءِ الْغَاصِبِينَ ، الَّذِينَ
جَاءُوا لِيَزِيدُوا فِي مَتَاعِهِ ، كَأَنَّمَا لَمْ يَكُنْ يَكْفِيهِ تِلْكَ

الفتية التي اجتاحت البلاد ، وكادت تعصفُ به
وبالخليفة الذي أرسله .

وبلغ الإسكندرية ، وحاصرها ، ودار القتال بينه
وبين رجال أبي حفص ، وكان قتالاً رهيباً ، يشيبُ
من هوله الوليد . وأطرق عبد الله بن طلحة يفكر ،
فألفى أنه لو استمرَّ في قتال اليائسين فسَيوهنُ
جيشه ، وقد يُطمعُ ذلك السَّاحِطِينَ والمُتَرَبِّصِينَ ؛
فألفى من الخير مصانعتهم ، وأن يؤدَّى لهم جانباً من
المال على أن يُجلُّوا عن الديار . فأرسل إليهم رُسُلَه ،
وقبلَ أبو حفصِ عمر بنُ شعيبِ الأندلسيَّ ما عرضَ
عليه عبد الله بنُ طلحة من مال ، على أن يُجلُّوا إلى
جزيرة من جزر الروم . وتأهبَ الرِّجالُ للرحيل ،
وفي صُدُورِهِم قلق ، وفي نفسِهِم مَرارة ، وبينَ
جوانِحِهِم حيرة . خيَّلَ إليهم أنَّ الدُّنيا قد سُدَّتْ في

وَجُوهِهِمْ ؛ وَلَوْلَا ثِقَّتُهُمْ بَزْعِيمِهِمْ لَاسْتَوَلَى عَلَيْهِمْ
يَأْسٌ وَقُنُوطٌ .

وَرَأَى أَبُو حَفْصٍ يُصْدِرُ أَوْامِرَهُ ؛ وَفِي وَجْهِهِ ثِقَّةٌ
وَفِي نَفْسِهِ أَمَلٌ ، وَبَيْنَ جَوَانِحِهِ طُمَأْنِينَةٌ . كَانَ يَرْجُو
إِحْدَى الْحُسَيْنَيْنِ ؛ أَنْ يَفْتَحَ اللَّهُ عَلَيْهِ أَرْضًا مِنْ
أَرْضِي الْأَعْدَاءِ أَوْ يَمُوتَ شَهِيدًا .

وَعَادَرَتِ الْإِسْكَندَرِيَّةُ أَرْبَعُونَ سَفِينَةً ، تَحْمِلُ
عَشْرَةَ آلَافٍ مُقَاتِلٍ ، تَتَدَفَّقُ فِي عَرْقِهِمْ دِمَاءٌ حَارَّةٌ ،
وَتَرْتَسِمُ فِي مُحْيَاهُمْ قُوَّةُ الْعَزِيمَةِ .

رَكِبَ الْمُسْلِمُونَ ثَبَجَ الْبَحْرِ كَالْمُلُوكِ عَلَى الْأَسْرِ ،
وَانْسَابَتِ الْمَرَائِكِبُ تَحْمِلُ الْمُجَاهِدِينَ ؛ حَتَّى إِذَا
لَا حَتَّ إِقْرِيطِشُ (كَرِيْت) تَحْفَزُ الرُّجَالُ ، وَقَبَضُوا
عَلَى سِيُوفِهِمْ ، وَانْطَلَقَتِ الصَّيِّحَاتُ مُدَوِّيَّةٌ مِنْ
الْخَنَاجِرِ ، وَطَفِقَ الْقُرَاءُ يَقْرَأُونَ آيَاتِ الْجِهَادِ ؛

فامتشعر الرجال كأن نيران الإقدام تتأجج في
صدورهم ، وكأن الكون قد أرهف لیسجل آيات
بطولاتهم .

وأخذ الشاطيء يقرب رويدا رويدا ، فارتج
المكان بالتهليل والتكبير ، وخيل لسكان الجزيرة
أنهم يسمعون زئير الأسود ، ففرّوا مُرتاعين .
وخفت الحامية البيزنطية إلى الشاطيء ، تصدّ
المُغيرين ؛ ولكن المسلمين راحوا يقفزون من المراكب
إلى الأرض في رشاقة الغزلان ، ويمشون إلى أعدائهم
مشى الوُغول ، وقد أطلت من أسيافهم المنون .

وانكسرت الحامية أمام سيل المسلمين الجارف ،
ففرّت مفزوعة ، تحتّمى بحصونها الداخليّة ، تنتظر
المُدّد الذي سيبعث به الإمبراطور ميخائيل الثاني ،
إمبراطور الروم ، من القُسطنطينيّة ، لطرده الغرب

الذين لم يكتفوا بانتزاع الشام ومصر وشمال إفريقيا
من أيديهم ، بل جاءوا يحتلون الجزائر ، ليضربوا
حول بلاد الروم نفسها ستاراً حديدياً .

ثبت أبو حفص أقدامه على الشاطئ ، فكان أول
ما بدأ به أن صاح برجاله : أحرقوا السفن .

فنظروا إليه مشدوهين وقد تسمرت أقدامهم
بالأرض ، ولم يسرعوا خفافاً لتلبية أمره ، كما
اعتادوا أن يفعلوا ، فإذا به يصيح ثانية ، وفي غضب
وعزم :

- أحرقوا السفن .

وأفاقوا من الدهول الذي دثرهم ، ووجدوا
ألسنتهم ، فقالوا له :

- كيف تفعل ذلك ؟ أتريد أن تقطع بيننا وبين

بلاد المسلمين ؟

فقال في ثورة ؟

- فِيمَ شَكَوَاكُمْ ؟ أَلَمْ أَهْلِكُمْ إِلَى أَرْضٍ تَفِيضُ

بِالْبَنِّ وَالشَّهْدِ ؟

- وَأَوْطَانُنَا ؟

- هَذِهِ أَوْطَانُكُمْ ، انْسُوا أَوْطَانَكُمْ الْقَاحِلَةَ

الْمَاحِلَةَ ؟

- وَنَسَاؤُنَا ؟

- مَا أَكْثَرَ النَّسَاءَ الْحَسَانَ فِي الْجَزِيرَةِ ، إِنْ هِيَ

إِلَّا أَنْ تَسْتَوَلُوا عَلَيْهَا ، وَتُصْبِحَ نَسَاؤُهَا إِمَاءَكُمْ

- وَأَوْلَادُنَا ؟

- مَا أَجْمَلَ أَنْ تُنْسَلُوا هُنَا ، وَأَنْ تُصْبِحُوا آبَاءَ لَجِيلٍ

جَدِيدٍ ، يَذْكُرُ اسْمَ اللَّهِ فِي الْغُدُوِّ وَالْآصَالِ .

وَمَاتَ اعْتِرَاضَاتُهُمْ أَمَامَ حُجَجِهِ ، فَأَهْرَعُوا إِلَى

السُّفْنِ يَحْرِقُونَهَا ، وَانْدَلَعَتْ أَلْسِنَةُ النَّيِّرَانِ

كالأبالسة ، فزاد ذلك في عزم جنوده ، وأورث رجال الحامية البيزنطية وهنا على وهن .

تقدم أبو حفص في الجزيرة ، ولم يلق مقاومة ؛ فقد أهرعت الحامية إلى الجبال تحتمى بها ، ونزل بجنده في مكان فسيح ، وحفر حول معسكره خندقاً هائلاً ، فأطلق اسم « الخندق » على الجزيرة ، وحرّفه الغريئون فأصبح « كائديا » .

وظل أبو حفص في تقدّمه ، يسحق كل مقاومة تعترض سبيله ، حتى خلا له وجه الجزيرة ، وأصبحت كلمته هي العليا . وجزع ميخائيل الثاني إمبراطور الروم لسقوط « كريت » في أيدي هؤلاء المغامرين . فما إن انتهى من قمع الثورة التي قامت - في وجهه - في القسطنطينية ، حتى جهّز حملة بحرية بقيادة أمير البحر « أوريفاس » ، لطرده الذين

انْتَزَعُوا مِنَ الْإِمْبَرَاطُورِيَّةِ ذَلِكَ الْمَوْقِعَ الْهَامَّ الَّذِي
سَيُصْبِحُ عَلَى الدَّوَامِ شَوْكَةً فِي جَنْبِهَا ، مَا دَامَ فِيهِ
هَؤُلَاءِ الْعَرَبُ الَّذِينَ رَاخُوا يَضْرِبُونَ حَوْلَهَا نِطَاقًا
فُولَاذِيًا .

انْطَلَقَ أُوْرِيْفَاسُ بِأَسْطُولِهِ إِلَى إِقْرِيطِشِ (كَرِيْت) ،
وَمَا إِنْ دَنَا مِنْ شَوَاطِئِهَا حَتَّى أَلْفَى أَبَا حَفْصٍ وَجُنُودَهُ
يَتَأَهَّبُونَ لِاسْتِقْبَالِهِ . وَعَلَى شَوَاطِئِ الْجَزِيرَةِ دَارَتْ
الْمَعْرَكَةُ قَاسِيَةً مَرِيرَةً ، سَالَتْ فِيهَا الدِّمَاءُ ، وَسَقَطَتْ
جُثَثُ الْقَتْلَى ، وَرَاحَ الْمَوْجُ يَغْمُرُهَا فِي إِقْبَالِهِ ،
وَيَنْحَسِرُ عَنْهَا فِي إِدْبَارِهِ . وَدَوَّى الْمَكَانُ بِالتَّكْبِيرِ
وَصِيْحَاتِ الْمُسْلِمِينَ ، فَأَلْقَى اللَّهُ الرُّعْبَ فِي قُلُوبِ
أَعْدَائِهِمْ ، فَتَهَقَّرُوا مَهْزُومِينَ ، وَلَاذُوا بِمَرَكَبِهِمْ ،
ثُمَّ انْسَحَبُوا مَذْخُورِينَ يَلْعَقُونَ جِرَاحَهُمْ ، وَقَدْ
نَكَّسُوا رُءُوسَهُمْ خِزْيًا وَانْكَسَارًا .

وَاتَّخَذَ الْمُسْلِمُونَ مِنْ حِسانِ الْجَزِيرَةِ أُمَّهَاتِ
أَوْلَادٍ ، وَأَصْبَحُوا آبَاءَ لَجِيلٍ فَتَيَّ يَدِينُ بِالتَّوْحِيدِ ،
وَيُؤْمِنُ بَوَطْنِهِ الْجَدِيدِ ، وَيَذُبُّ عَنْهُ غَارَاتِ أَبَاطِرَةِ
الرُّومِ ، وَيُدَافِعُ عَنِ الدَّوْلَةِ الَّتِي أَسَّسَهَا زَعِيمُهُمْ :
أَبُو حَفْصٍ عَمْرُ بْنُ شُعَيْبِ الْبَلُوطِيُّ الْأَنْدَلُسِيُّ
الْإَقْرِيطِيشِيُّ ، وَيَبْذُلُ فِي سَبِيلِهَا دَمَهُ ، وَيُجُودُ لَهَا
بِرُوحِهِ وَمَالِهِ .